الأثر البياني للاستعارة في: "سورة التوبة"

أ. نور الهدى مباركية و أ. صباح محمدي

تقديم:

إن القرآن الكريم يعبر بالصورة المحسة والمتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية وعن النموذج الإنساني وعن الطبيعة البشرية، كما يعبر عن الحادث المحسوس والمشهد المنظور ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها، فيمنحها الحياة الشاخصة والحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية حالة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حتى، ومن أهم المباحث التي ظفرت بعناية القرآن الكريم وعرفت وجوه الحسن في أساليبه: مباحث الحقيقة والمجاز بصفة عامة، و مبحث الاستعارة بصفة خاصة، حيث احتل هذا الأخير منزلة خاصة في الدراسات القرآنية منذ أول ظهورها وفي الوقت نفسه عني به علماء البلاغة واللغة وعلماء الأدب على السواء، وكان السبب في تلك العناية الحاجة إلى فهم الأساليب التي كثر ورودها في كلام العرب وكان لكثير من تلك الأساليب معان وراء ما يدل عليه ظاهر لفظها، فالاستعارة ظاهرة من ظواهر التوسع في الكلام، وهي من أوصاف البلاغة والفصاحة العامة، وإذا كان البلاغيون ينظرون إلى المجاز والتشبيه والاستعارة على أنها الإعجاز وأركانه وعلى أنها الأقطاب التي تدور البلاغة حولها وتوجب الفضل والمزية، فإنهم يجعلون المجاز والاستعارة عنوان ما يذكرون، وكما يقول عبد القاهر الجرجاني: إن فضيلة الاستعارة الجامعة تتمثل في أنها تبرز البيان أبدا في صورة مستجدة تزيد قدره نبلا وتوجب له بعد الفضل فضلا.

وفي دراستنا هذه أردنا أن نأخذ الاستعارة من منظار النص القرآني الذي هو أكمل النصوص جميعا وقد آثرنا سورة التوبة كأنموذج للدراسة، ولكي يتم ذلك وجب أن نتطرق إلى ثلاثة عناصر كالآتي:

- إضاءة لمصطلح الاستعارة
- الاستعارة في القرآن الكريم
- في رحاب السورة الكريمة

المبحث الأول: إضاءة لمصطلح الاستعارة

أ- الاستعارة لغة:

جاء في معجم "الوسيط": "استعار الشيء منه، طلب أن يعطيه إياه"١ وقال "الزمخشري" "إن العرب تقول: أرى الدهر سيستعيرني؛ أي يأخذها مني"٢ ، وهناك عدة تعريفات نجد منها:

استعار ثوب فأعاره إياه، ومنه قولهم كبر مستعار وقد قيل مستعار بمعنى متداول٣ وأيضا: استعار العارية طلبها، يقال استعرت منه الشيء فأعارنيه٤ .

وقيل: أعار الشيء وأعاره منه وتعاوره إياه وتعور واستعار: طلبها واستعارها منه، طلب إعارته٥ .

والاستعارة هي رفع الشيء وتحويله من مكان إلى آخر، يقال استعار فلان سهما من كنانته؛ رفعه وحوله إلى يده.

وعلى هذا يصح أن نقول: استعار إنسان من آخر شيئا، بمعنى أن الشيء انتقل من يد المعير إلى المستعير بلا فائدة منه أو الانتفاع به، وبناءً على هذا تم تحديد الاستعارة في اللغة.

الاستعارة اصطلاحا:

الاستعارة اصطلاحا هي قمة الفن البياني وجوهر الصورة الرائعة، وردت بعدة تعريفات نبدأها بـ:

قول ابن الأثير: "الأصل في الاستعارة المجازية مأخوذة من العارية الحقيقية التي هي ضرب من المعاملة وهي أن يستعير بعض الناس من بعض شيئا من الأشياء، و يقع ذلك من شخصين بينهما سبب معرفة ما يقتضي استعارة أحدهما من الآخر شيئا، وإذا لم يكن بينهما سبب معرفة بوجه من الوجوه فلا يستعير أحدهما من الآخر شيئا؛ إذ لا يعرفه حتى يستعير منه"٦ .

ونلاحظ من القول صلة بين المعنى اللغوي للاستعارة ومعناها المجازي؛ إذ أنه لا يستعير أحد اللفظين من الآخر، إلا إذا كان هناك صلة معنوية تجمع بينهما.

إن الاستعارة تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه٧، وهذا المفهوم جعل من الدلالة الاسمية لشيء ما أطلق على غيره، والاستعارة هنا أيضا نجدها قريبة من المعنى اللغوي.

وعرفها ابن المعتز بقوله: "هي استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها، من شيء قد عرف بها"٨، ويعرفها القاضي الجرجاني بقوله: "الاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل، ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها"٩ .

لكن هذا التعريف نجده محدودا بضوابط، حيث جعل من الاستعارة مناسبة لترتيب الشبه من المستعار له للمستعار منه وامتزاج اللفظ بالمعنى. وفي تعريف آخر: "اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون للفظ أصل في الوضع اللغوي معروف، تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع، ثم يستعمله الشعر وغير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلا غير لازم فيكون هناك كالعارية"١٠ .

وفي هذا التعريف نجد دقة ووضوح نلمسها من خلال وجود هدف وراء وضعها ،في أن اللفظ ينقل عن أصله اللغوي ويجري على ما لم يوضع له من أجل شبه بين ما نقل عنه.

ويرى "العسكري" أن: "الاستعارة هي نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض"١١.

وعلى هذا فالاستعارة هو أن يستعمل اللفظ في غير ما وضع له أصلا في التركيب بقرينة ما،

ومن هذه التعريفات السابقة يمكن أن نحدد الاستعارة بأنها: ضرب من المجاز اللغوي علاقته المشابهة دائما بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي، ونلمس ذلك في قول محمود سليمان: "إن الاستعارة نوع من أنواع المجاز اللغوي علاقته المشابهة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي"١٢ .

ج- قرينة الاستعارة:

وهي في حقيقتها تشبيه حذف أحد طرفيه، ولعل هذا التحديد هو الأبسط؛ لأنها في الواقع بمنزلة التشبيه لكننا لا نجد فيها أداة التشبيه ولا وجه شبه مذكور.

تطلق الاستعارة على استعمال اسم للمشبه به في المشبه، فنسمي المشبه مستعارا منه والمشبه به مستعارا له واللفظ مستعارا. وقرينة الاستعارة التي تمنح من إيراد المعنى الحقيقي قد تكون لفظية أو حالية، وهي التي تمنع من إيراد المعنى الأصلي أو الحقيقي، وهي إما ظاهرة أو تفهم من السياق فإذا قال القائل: "رأيت أسدا وهو يريد رجلا شجاعا، فإن هذا القول لا يفهم منه ما أراد وإنما يفهم منه ما أراد: الحيوان المعروف بالأسد، لكن إذا اقترن بهذا القول قرينة تدل على رجل شجاع اختص الكلام عما أراد"١٣ .

ونعتبر بهذا المعنى القرينة ما يفصل الكلام عن الحقيقة، ويجعله مجازا وندخله حيز الاستعارة، وقد فصل البلاغيون فيها فاعتبروها "إما أمرا واحدا كما في قوله: رأيت أسدا يرمي"١٤ فالقرينة هنا جاءت لفظا واحدا كما هو "يرمي" للدلالة على المعنى المجازي وهو المقصود، فاكتفى بلفظ واحد صرف عن إيراد المعنى الحقيقي، وقد يكون أكثر من أمر واحد كقول الشاعر:

فإن تعافوا العدل والإيمان فإنه في إيماننا نيرانا

فتعلق قوله "تعافوا" بكل من "العدل" و"الإيمان" قرينة على أن المراد "بالنيران" الحرب التي تشبهها في الزمان، على أن دلالته جوابه أنهم يحاربون، ويفسرون الطاعة بالسيف.

أو أن تكون القرينة "معاني ملتئمة" كقول البحتري:

وصاعقة من نصلة تنكفي بها على أرؤس الأقران خمس سحائب١٥

فقد عنى بـ "خمس سحائب" أنامل الممدوح، فذكر أن هناك "صاعقة" ثم قال: من "نصلة" فبين أنها من نصل السيف، ثم قال: "على أرؤس الأقران" ثم قال: "خمس" فذكر أصابع اليد، فإن من مجموع ذلك غرضه١٦ .

ومن خلال هذا التحليل للقرينة عند البلاغيين، يتبين لنا أن القرينة هي عماد الاستعارة، فهي تتراوح بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي الذي يكون هو الهدف من النص، ولا يمكن أن يكون هذا المعنى متحققا إلا بوجود القرينة، فتحل محل المعنى الحقيقي، فهي شريان الحياة في الاستعارة، ولا يمكن أن تكون استعارة دون قرينة، فدون القرينة لا يصح للكلام أي مدلول، سوى المدلول المتعارف عليه ولا تكون للاستعارة أي ميزة جمالية أو إبداعية على مستوى اللغة، ولإدراك هذه الأهمية البالغة أولى لها القدماء عناية خاصة وفصلوا فيها.

د- أقسامها وفروعها :

باعتبار ما يذكر من طرفيها إلى قسمين:

١- الاستعارة التصريحية: هي ما حذف منها المستعار له وذكر المستعار منه في التركيب، فيصرح فيها بلفظ المشبه به دون المشبه، ومثال ذلك قوله تعالى: (كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) سورة إبراهيم الآية: ٠١

ففي الآية الكريمة استعارتان هما في كلمتي "الظلمات إلى النور" فصد بالظلمات الضلال، والنور قصد به الهدى والإيمان، فقد استعار "الظلمات" "للضلال" لعلاقة المشابهة بينهما في عدم اهتداء صاحبهما، كذلك استعار النور للهدى والإيمان لعلاقة المشابهة بينهما في الهداية.

والقرينة التي تمنع من إرادة المعنى الحقيقي في كلا الاستعارتين قرينة حالية، فالمشبه به هنا ليس مرئيا محسوسا بمعنى مدركا عن طريق العقل، فإثباته شيء يتحقق في الذهن، ومثالها من الشعر: قول أحمد شوقي في رثاء الشيخ احمد المختار:

يا أيها السيف المجرد بالغلا يكسو السيوف على الزمان مضاء

شبه الشاعر الشهيد عمر بالسيف بجامع الصلابة والقوة وتمزيق الأعداء، واستعار اللفظ الدال على المشبه به للمشبه، والقرينة المانعة من إرادة المعنى الأصلي لفظية وهي "يا أيها"، ولما كان المشبه به مصرحا به فالاستعارة تصريحية.

٢- الاستعارة المكنية: هي ما حذف فيها المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه، وفيها يذكر المشبه، أي نكتفي بذكر المستعار له دون المستعار منه الذي يرمز له بشيء من لوازمه التي تشير إليه وتخبر عنه، ومثالها في القرآن الكريم قوله تعالى: (والصبح إذا تنفس) سورة التكوير الآية ١٨

حذف المشبه به (المستعار منه) وهو الإنسان، وذكر المشبه (المستعار له) وهو الصبح، وأشير إلى المستعار منه بذكر لازم من لوازمه وهو التنفس ولهذا فهي استعارة مكنية، ومثالها أيضا في القرآن الكريم قوله تعالى: (إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور تكاد تميز من الغيظ) سورة الملك الآية ٧. ٨

فقد وردت في هذه الآية استعارتان: الأولى في "الشهيق" فالله سبحانه وتعالى يشبه جهنم بمخلوق له هذا الصوت الكريه، وقد حذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو "الشهيق" على سبيل الاستعارة المكنية والثانية في قوله: "تميز من الغيظ" يقولون "تغيظت القدر" إذا اشتد غليانها ثم جعله صفة للإنسان ورمز له بشيء من لوازمه وهو " تكاد تميز من الغيظ" والقرينة هي إثبات التميز للنار.

وكل ما جاء على هذا النحو من إيراد المشبه وحذف المشبه به، والرمز إليه بلازم من لوازمه فهو: "استعارة مكنية" .

الفرق بين الاستعارة المكنية والاستعارة التصريحية :

الاستعارة التصريحية يصرح فيها بالمشبه به، على خلاف الاستعارة المكنية التي يحذف فيها المشبه به، ويذكر المشبه فقط.

القرينة في الاستعارة التصريحية سواء كانت لفظية أو حالية هي محققة حسا أو عقلا، أما القرينة في الاستعارة المكنية تخيلية؛ أي أمر متوهم غير حقيقي.

التشبيه يرد عفوا في الاستعارة التصريحية كقولك: رأيت أسدا أو تقول رأيت رجلا كالأسد، فالقول في كليهما مستساغ مقبول، على

خلاف الاستعارة المكنية، فلا يظهر فيها التشبيه بصورة واضحة ولا يدرك إلا بعد التفكير والتأمل، ومثال ذلك قول لبيد:

وغداة ريح قد كشفت وقرة إذا أصبحت بيد الشمال زمامها[١٧]

فالشبه في هذه الاستعارة المكنية يوجب التأمل في معنى البيت للتوصل له.

تقسيم الاستعارة باعتبار اللفظ المستعار:

يقسم البلاغيون الاستعارة تقسيما آخر باعتبار لفظها إلى أصلية وتبعية، فالاستعارة الأصلية: هي أن يكون المستعار اسم جنس كرجل، وكقيام وقعود كونها أصلية هو أن الاستعارة مبناها على التشبيه المستعار بالمستعار منه، ففي التعريف ندرك أن الاستعارة الأصلية تكون في الأسماء الجامدة غير المشتقة، كأسماء الأجناس نحو: رجل، أسد وما يجري مجراها كقيام، قعود، فاختصت بهذا اللون دون غيرها، فأصلها أن يكون اللفظ المستعار يشبه المشبه به فعندما نقول: رأيت أسدا، فاللفظ المستعار "أسد" اسم جنس فهو غير مشتق، صرح بالمشبه به وهو الأسد، واكتفى بذكره وحذف المشبه الذي هو الرجل والجامع بينهما وهو الشجاعة فهي استعارة تصريحية، وعندما نقول: "بدا لي غزال" فقد ذكر المشبه به وهو الغزال، وحذف المشبه وهو المرأة والجامع بينهما هو الرشاقة والحسن، لذا وجب أن تكون استعارة تصريحية أصلية، ومثال ذلك في الشعر قول المتنبي:

حملت إليه من لساني حديقة سقاها الحجا سقي الرياض السحائب[١٨]

"والشاهد في هذا البيت لفظ حديقة: حيث شبه شعره المنظوم الذي يمدح به أميرة بالحديقة، بمجامع الجمال، ثم استعار اللفظ الدال على المشبه به "الحديقة" للمشبه "الشعر" على سبيل الاستعارة التصريحية وذلك للتصريح فيها بلفظ المشبه به والقرينة: "من لساني وسقاها الحجا".

وإذا تأملنا اللفظ المستعار وهو "الحديقة" رأيناه كذلك اسما جامدا غير مشتق ومن أجل ذلك سميت: استعارة أصلية"١٩ .

أما الاستعارة التبعية فهي: "ما كان اللفظ المستعار أو اللفظ الذي جرت فيه الاستعارة اسما مشتقا أو فعلا"٢٠ ، فاللفظ المستعار لا يمكن أن يرد غير مشتق ومثاله قوله تعالى: (ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة) سورة الأعراف الآية: ١٥٤

نلاحظ أن الشاهد في هذه الآية الكريمة جاء في لفظ "سكت" وهي استعارة تصريحية تبعية، حيث شبه انتهاء الغضب عن موسى بالسكوت، ثم استعار اللفظ الدال على المشبه به وهو "السكوت"؛ أي انتهاء الغضب، ثم اشتق من السكوت بمعنى الغضب "سكت" الفعل بمعنى انتهى.

ومنه اللفظ المستعار في الاستعارة التبعية يجب أن يرد مشتقا سواء كان فعلا أو اسما مشتقا أو حرفا، بغض النظر عن نوع الاستعارة، مكنية كانت أن تصريحية، فالاشتقاق هو أساس تحقق الاستعارة.

وللاستعارة أنواع كثيرة تضيق هذه الصفحات عن ذكرها كلها؛ إذ أننا لسنا بصدد ذكر كل الأنواع بالتفصيل مثل الاستعارة: المرشحة والمجردة والمطلقة.

٢- الاستعارة في القرآن الكريم:

أردنا في هذه الدراسة أن نتتبع الاستعارة في القرآن الكريم، ولسنا قاصدين من هذا التتبع أن نقوم بحصر الاستعارة في القرآن الكريم، وإنما قصدنا من وراء هذا التتبع الكشف عن سر بلاغة الاستعارة وروعتها في القرآن الكريم، وما تمتاز به من خصائص فنية ليست لها في غير القرآن الكريم.

أ. وجود الاستعارة في القرآن الكريم:

تحت هذا العنوان سنعرف بإيجاز آراء العلماء حول وجود الاستعارة في القرآن الكريم، فبعض العلماء أنكروا وجودها في القرآن الكريم، أمثال القاضي عبد الوهاب المالكي، وحجته التي استند عليها هي أنه رأى في إطلاق لفظ الاستعارة في القرآن الكريم إبهاما،

وبعضهم أجازها في القرآن الكريم، ولكن هذا البعض المجوز لها، احترس مما خاف منه المالكي فاشترط البعد عن الإبهام، ولكن هذه الشروط هي من باب تحصيل حاصل لأن الإبهام من غير شك غير موجود في القرآن، فهو الكتاب الذي امتاز بالوضوح والجلاء والبعد عن الغموض والإبهام، وإن من يتتبع الاستعارة في القرآن الكريم يرى أنه في قمة الوضوح وفي غاية الجلاء فالمناسبة بين طرفيها ظاهرة قوية وألفاظها منتقاة متناسبة مؤتلفة بعضها مع بعض ومع معانيها.

وبعض العلماء وقف من الاستعارة في القرآن الكريم موقف المترددين (جائز ومانع) من أمثال القاضي نجم الدين إبراهيم بن علي المتوفى سنة (٧٥٨)؛ إذ قال: (إن أطلق المسلمون الاستعارة في آي القرآن الكريم أطلقناها، وإن امتنعوا امتنعنا)٢١ .

ونحن لا نقف إلى جانب نجم الدين في هذا الرأي، خاصة أنه متأخر، فقد سبقه علماء كثيرون أجلاء أثبتوا وجود الاستعارة في القرآن الكريم، فالرماني استشهد لها من آياته، وأبو هلال العسكري قدم شواهدها القرآنية على غيرها من الشواهد. وعبد القاهر الجرجاني أقام الدنيا وأقعدها علة نظم القرآن الكريم الذي منه الاستعارة، وابن أبي الاصبع المصري عقد لها بابا في كتابه "بديع القرآن" واستخرج جميع الأمثلة، فكان على نجم الدين وهو متأخر على هؤلاء ألا يقف هذا الموقف المتردد.

ب- السر في جمال الاستعارة في القرآن الكريم:

إن السر في جمال الاستعارة في القرآن الكريم، يرجع إلى ما امتازت به من خصائص فنية لا توجد في غير القرآن الكريم، وإن من يمعن النظر يرى هذه الخصائص تكمن في الأمور التالية:

١- حسن التصوير

٢- الإيضاح

٣- الإيجاز

٤- اختيار الألفاظ

٥- حسن التركيب؛ مراعاة حسن التشبيه الذي بنيت عليه الاستعارة.

فألفاظ القرآن موحية صادقة في جعل السامع أو القارئ يحس بالمعنى أكمل إحساس وأوفاه، كما أنها تصور المنظر للعين وتنقل الصوت للأذن وتجعل الأمر المعنوي ملموسا حسيا٢٢.

كما أن الباحث إذا أمعن النظر في ألفاظ القرآن الكريم استبان له أنه من إيحائها: متناسبة، متناسقة، مؤتلفة مع بعضها ومع معانيها. ويتبين ذلك من النظر والتأمل في قوله تعالى: (ضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) سورة النحل الآية: ١١٢

فقد شبه القرآن أثر الجوع والخوف وضررهما المحيط بهم باللباس، بجامع الاشتمال والإحاطة في كل منها، ثم استعار المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية، وفي الآية استعارة مكنية، حيث شبه ما غشى الإنسان عند الجوع والخوف من أثر الضرر بالطعم المر البشع بجامع الكراهة، واستعار لفظ المشبه به للمشبه ثم حذفه ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو "الإذاقة" على سبيل الاستعارة المكنية.

"وفي الآية أيضا استعارة تخيلية، حيث شبهت الإذاقة المتخيلة بالإذاقة المتحققة واستعارت للمتخيلة، والذي يهمنا بعد بيان الاستعارات التي اشتملت عليها الآية الكريمة، هو أننا إذا تأملنا ألفاظ الآية وجدناها متلائمة وفيها من التناسب ما لا خفاء فيه، لأنه لما ذكر الله عز وجل الأمن والرغبة في الرزق، أردفه بما يلائمه من الجوع والخوف والإذاقة لما في ذلك من البلاغة"٢٣ .

ونلاحظ في استعارات القرآن الكريم أنها تعمل على إيضاح المعنى، حتى يصير ملموسا مأنوسا لدى النفس البشرية، ويظهر ذلك بوضوح في استعمال القرآن الألفاظ الموضوعة للأمور المحسوسة في الدلالة على الأمور المعنوية، كذلك في قوله تعالى: (والشعراء يتبعهم الغاوون ألم ترى أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون) سورة الشعراء الآية: ٢٢٦

"فقد شبه القرآن المقاصد الشعرية بالأودية المحسوسة للمقاصد الشعرية المعقولة المعنوية، فأبرزها في صورة المحسوس المرئي،

وبذلك وضح المعنى وقربه إلى النفس والعقل، وفوق هذا الإيضاح والتصوير المعنوي نجد القرآن قد زاده حسنا وجمالا، حيث راعى الدقة فاختار للمعنى ثوبا لفظيا مناسبا له، موحيا به وهو الأودية، ولم يختر له الطرق والمسالك مثلا؛ لأن المعاني الشعرية تستخرج بالروية، وفيها خفاء وغموض ولهذا كانت الأودية أليق بالاستعارة"٢٤

٣- في رحاب السورة الكريمة :

سورة التوبة: سورة كريمة من السور المدنية، آياتها تسع وعشرون ومائة، عنيت بجانب التشريع، وهي من أواخر السور القرآنية التي نزلت على الرسول- صلى الله عليه وسلم- وقد روى البخاري عن البراء بن عازب أن آخر سورة نزلت "براءة"٢٥ .

وتناولت السورة الكريمة العديد من السور البلاغية نذكر منها الاستعارة:

قال تعالى:(فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) التوبة الآية ٠٥

اختلف المفسرون في المراد بالأشهر الحرم هاهنا، فذهب ابن جرير إلى أنها المذكورة في قوله تعالى: (منها أربع حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكن)، قال ابن جرير آخر الأشهر الحرم في حقهم المحرم وهذا الذي ذهب إليه حكام علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وإليه ذهب الضحاك أيضا وفيه نظر والذي يظهر من حيث الساق ما ذهب إليه ابن العباس، وبه قال مجاهد وعمرو بن شعيب ومحمد بن إسحاق وقتادة وعبد الرحمان بن زيد بن سلم، أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها بقوله: "فسيحوا في الأرض أربعة أشهر" ثم قال: "فانسلخ الأشهر الحرم" أي ما انقضت الأشهر الأربعة التي حرمنا عليكم فيها قتالهم وأجلناهم فيها، فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم؛ لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر، ثم إن الأشهر المحرمة سيأتي بيان حكمها في آية أخرى في السورة الكريمة٢٦ .

فإذا انسلخ الأشهر الحرم أي انقضت، وأصله من السلخ بمعنى الكشط يقال: سلخت الإهاب من الشاة أي كشطته ونزعته منها وتجيء بمعنى الإخراج، كما يقال: سلخت الشاة عن الإهاب إذا أخرجتها منه.

والانسلاخ فيما نحن فيه استعارة حسنة، وتحقيق ذلك أن الزمان محيط بما فيه من الزمانيات مشتمل عليه اشتمال الجلد على الحيوان، وكذا كل جزء من أجزائه الممتدة كالأيام والشهور والسنين فإذا مضى فكأنه انسلخ عما فيه، وفي ذلك مزيد لطف لما فيه من التلويح بأن تلك الأشهر كانت حرزا لأولئك المعاهدين عن غوائل أيدي المسلمين، فأنيط قتالهم بزوالها كما يجوز أن يكون المعنى انسلاخ الأشهر الحرم هاهنا، تجردها من بقية الشهور بانقضائها.

قوله تعالى: (اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون) التوبة ٠٩

يقول تعالى ذما للمشركين وحثا للمؤمنين على قتالهم: "اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا" يعني أنهم ابتعدوا عن إتباع آيات الله بما التهوا به من أمور الدنيا الخسيسة٢٧ ، كما تضمنت الآية الأمر باستيفاء العهود والاستقامة في كل أمر أو جميع آياته، فيدخل فيها ما ذكر دخولا أوليا المراد بالاشتراء الاستبدال٢٨ .

قوله تعالى: (وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم) التوبة الآية ١٢

في هذه الآية استعارتان؛ لأن النكث نقض الحبل المفتول في الأصل وهي النكيثة وجمعها نكائث ، والاستعارة الأخرى في قوله: "وطعنوا في دينهم" وأصل الطعن وخز الشيء بالرمح أو ما يجري مجراها من الآلات الحديدية لنقض بنيته وإفساد جملته، ليكون بمعنى طعنهم في الدين- والله أعلم- ينقسم إلى قسمين أحدهما يراد به حرب المؤمنين لينقضوا دينهم ويميتوا شريعتهم، والوجه الثاني أن يكون به بسط لألسنتهم في ذم الدين ورميه بالعيوب وذلك يسمى طعنا على الاتساع٢٩

وقوله تعالى: (حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) التوبة الآية ٢٩

وهي استعارة تصريحية إضافية؛ لأن المراد فيها حتى يعطوا الجزية عن خشوع وضراعة وذل واستكانة٣٠ كما تقول أعطى فلان بيده إذا أسلم واستسلم، وقيل في ذلك أيضا حتى يعطوها عن يد منكم؛ أي نعمة منكم عليهم في حق دمائهم وقبول الجزية، وروى بعضهم أن المراد به تسليم الذمي الجزية بيده إلى قابضها.

وقوله تعالى: (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) التوبة الآية ٣٢

وهي استعارة تصريحية أصلية، لما ذكر والمراد بها تشبيه القرآن الذي هو كلام بالنور الذي يستضاء به وقد قيل أن نور الله هنا هو الإسلام؛ لأنه أضاء ظلمة الكفر وجلي غواشي الغلي المغدقة، وتشبيهه الطاعن في الإسلام بمطفئ النور من لطائف الاستعارات وشرائف البلاغة، والمراد من الإطفاء الرد والتكذيب؛ أي يريد أهل الكتاب أن يردوا على توحيد الله تعالى٣١ .

وقوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل) التوبة ٣٤

أي يأخذوها بالارتشاء لتغيير الأحكام والشرائع، والتحقيق والمسامحة فيها، ويجوز أن يكون المراد من الأموال الأطعمة التي تأكل بها، وقد ذكر الزمخشري وجهين ثانيهما أنه يستعار الأكل للأخذ، وذلك أنه يشبه حالة أخذهم أموال الناس من غير تمييز بين الحق والباطل، أو تفرقة بين الحلال والحرام٣٢ . وفائدة الاستعارة المبالغة في أنه أخذ بالباطل؛ لأن الأكل غاية الاستيلاء على الشيء ويزيد قوله "بالباطل" على هذا زيادة مبالغة.

وقوله تعالى: (يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) التوبة الآية: ٣٥

أي يقال لهم هذا الكلام تبكيتا وتقريعا وتهكما، ولهذا يقال أن من أحب شيئا وقدمه على طاعة الله عذب به وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال أثر عندهم من رضا الله عنهم عذبوا بها، و "ما" في قوله تعالى: "فذوقوا ما كنتم تكنزون" مصدرية أي و بال كنزهم أو بال كونهم كانزين٣٣، وفي الكلام استعارة مكنية وتخيلية أو تبعية.

وقوله تعالى: (لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم) التوبة الآية: ١١٠

وهذه استعارة تصريحية ومعناها أن ذكر البنيان الذي بنوه لا يزال ريبة في قلوبهم، يخافون معها إنزال الله سبحانه بهم ضروب العقاب، أو بسط المؤمنين عليهم لما ظهر منهم من عناد وشقاق، فهم أبدا في نفوسهم مستربون وعليها خائفون مشفقون، فلا يزالون على ذلك إلى أن تقطع قلوبهم حسرة وتزهق نفوسهم خيفة على طريق المبالغة في صفة الذم، أو قيل أيضا بمعنى إلا أن يتوبوا فتقطع قلوبهم التي اعتقدوا بها٣٤ .

وقوله تعالى: (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) التوبة الآية: ١١١

هذه استعارة مكنية، وذلك أن الله سبحانه وتعالى أمر ببذل نفوس المؤمنين وأموالهم في سبيل الجهاد عن دينه والمنافحة عن رسوله صلى الله عليه وسلم، وضمن لهم على ذلك الخلود في النعيم والأمان من الجحيم، فكانت أنفسهم وأموالهم بمنزلة العروض المبيعة، وكانت التعويضات المضمونة عنها بمنزلة الأثمان المعقودة، وكانت الصفقة رابحة لزيادة الأثمان على السلع، وإضعاف التعويضات على القيم، وبذلك تصبح العبادات كلها كالتجارات في أنها طلب للمنافع؛ إلا أن العبادات طلب لمنافع الآخرة والتجارات طلب لمنافع الدنيا.

وقوله تعالى: (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين أمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون× وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون) التوبة الآية: ١٢٤-١٢٥

هنا استعارة ظاهرة وذلك أن السورة لا تزيد الأرجاس رجسا ولا القلوب مرضا، بل هي شفاء للصدأ وجلاء للقلوب، ولكن المنافقين لما ازدادوا عند نزولها عمى وازدادت قلوبهم ارتيابا ومرضا، حسن أن يضاف ذلك إلى السورة٣٥، وتحولت بذلك السورة إلى سبب من أسباب المرض على سبيل الاستعارة.

لقد تتبعنا بعضا من الاستعارات الواردة في السورة على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، وسنعرض في جدول ها هنا الأثر البياني للاستعارة في سورة التوبة.

جدول يوضح الأثر البياني للاستعارة في سورة التوبة:

الرقم	الاستعـــــــارة	نوعـهـــا	أثـــرها البـيـــاني
٠١	قال تعالى:(فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) ٠٥	استعارة حسنة	استعارة جميلة، ويكمن ذلك في أنها تصور المعنى للقارئ تصويرا مؤثرا في النفس فيقر في الأذهان مع الإيجاز والمبالغة المقبولة.
٠٢	(اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله...) ٠٩	استعارة تبعية تصريحيه	استعارة فيها من الإيجاز والمبالغة ما لا يخفى
٠٣	(وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم)	استعارة مكنية	هذه الاستعارة البليغة جسدت صورة مرئية صورتها الحروف وأنطقتها، فكانت مشهدا متحركا بصناعة فائقة الإتقان.
٠٤	(ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة) ١٦	استعارة تصريحية	بلاغة هذه الاستعارة تتجلى في الاختصار إذ أجملت المعاني في لفظ واحد.
٠٥	(حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) ٢٩	استعارة تصريحية إضافية	زادت المعنى وضوحا والأسلوب رونقا وجمالا، حيث أن اللفظ الواحد (عن يد) يرسم صورة شاخصة موحية.
٠٦	(يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) ٣٢	استعارة أصلية تصريحية	تقودنا هذه الاستعارة إلى قدرة وقوة الله عز وجل مما زاد المعنى جمالا وسحرا.
٠٧	(يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) ٣٥	استعارة مكنية تخيلية أو تبعية	هذه الصورة الاستعارية دقة في البلاغة، حيث صورت قدرة الله عز وجل فتجعلك ترتجف أمام قدرته من خلال هذا التصوير.
٠٨	(وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا) ٤٠	استعارة تخيلية	يظهر أثر الحركة التخيلية في الاستعارة فزادتها قدرة على الإيحاء وتنشيطا للذهن وتحقيقا للمعنى.
٠٩	(ولو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سمّاعون لهم والله عليم بالظالمين) ٤٧	استعارة مكنية تبعية	هذه الآية جسدت الصورة المعنوية في صورة محسوسة تراها العين، وهذا يؤكد المعنى ويقرره في الأذهان.
١٠	(ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم) ٦١	استعارة تصريحية	كان لهذه الاستعارة الأثر البليغ والوقع اللطيف في الآية، حيث عرضت الأشياء المعنوية في صورة مرئية ملموسة.
١١	(ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالدا فيها) ٦٣	استعارة مكنية تخيلية	اجتمعت في هذه الاستعارة عناصر جمالية بالإضافة إلى العمق الفكري الذي أثارته.
١٢	(يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم) ٦٤	استعارة مكنية	زادت المعنى وضوحا والأسلوب جمالا ففجرت الدلالات في الأذهان.
١٣	(رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) ٨٧	استعارة مكنية	تداعت المعاني والصور في هذه الصورة الاستعارية وهذا هو السر الكائن في التصوير الذهني.

١٤	(ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء) ٩٨	استعارة مكنية	استعارة أكثر بلاغة ودقة في توكيد المعنى وتوضيحه وذلك لإعمال العقل واجتهاد الفكر فيها.
١٥	(أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم) ١٠٩	استعارة مكنية	زادت الاستعارة في هذه الآية المعنى إيحاءً وأثارت فنية يحملها اللفظ وينطوي عليه بانفعالات وأحاسيس منحتها حيوية وقوة.
١٦	(لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم) ١١٠	استعارة تصريحية	تضافرت المعاني ورسمت صورة تنخلع منها القلوب، وهذا القدر من التأثير ارتفع ببلاغتها حد الإعجاز،
١٧	(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) ١١١	استعارة مكنية	هذه الآية فيها مبالغة في تقرير وصول الثمن إليهم واختصاصه بهم، وهي استعارة عالية النسيج بليغة النظم.
١٨	(من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم) ١١٧	استعارة مكنية	شخصت هذه الصورة الاستعارة المعنى وهذا ما يلفت الانتباه للقدرة التصويرية في الكلمة في القرآن الكريم مما يبهر العقل.
١٩	(حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم) ١١٨	استعارة مكنية	زادت هذه الاستعارة المعنى وضوحا والأسلوب دقة، حيث جعلت المعاني تتلاحم فيما بينها، فأيقظت المعاني في أنفسنا وفجرت الدلالات في أذهاننا.
٢٠	(ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه) ١٢٠	استعارة مكنية	أسلوب المبالغة تجسد في تأكيد الموقف تنفيرا منه.
٢١	(وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون) ١٢٤ (وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون) ١٢٥	استعارة تصريحية ظاهرة	بينت مستوى التركيب وجماليته، حيث جعلت المعنى بديعا من النقيض إلى النقيض، ففي هذه الآية ينتقل من معنى إلى معنى أعمق ومن تصوير إلى تصوير آخر أكثر خصوصية.
٢٢	(لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم) ١٢٨	استعارة مكنية	قدمت لنا هذه الاستعارة صورة أقوى في التأثير وأبلغ في البيان.

من خلال هذا الإحصاء المتواضع للاستعارة في سورة التوبة، أدركنا إبداع الله سبحانه، في نسج معاني السورة بخيوط من ذهب، وهي ما يستعمل لبيان المعنى وإيضاح الفكرة، تستعمل في القوة وشدة التأثير في السامعين، وقد اعتمدت الاستعارات في السورة الجليلة على عرض الصور والصفات عرضا حسيا مجسما، ليرى القارئ في ألفاظها من الألواح والمعاني ما يراه إذا نظر إلى رسم أو تبصر في تمثال فصور ما فيه من آثار، التجأت الاستعارة إلى الخيال والصورة التي تجسم المعاني وتنقلها إلى درجة أرقى لتزداد جمالا، وكانت الاستعارة باختلاف أنواعها مصاحبة لنا في كل مشهد تقريبا، عدا ما لا يصلح للسياق فاختلفت تشكيلاتها مدعمة بمضامين الآيات منفردة بطريقة نظمها، معبرة عن خصوصية وتفوق الاستعارة القرآنية.

الهوامش:

١- مجمع اللغة العربية: المجمع الوسيط للغة العربية، دار عمران، بيروت، ط ٣، ١٩٨٥، ص ٦٥٩

٢- الزمخشري: أساس البلاغة، تج: محمد الفاخلي، المكتبة، بيروت، ط ٢، ١٩٩٩، ص ٤٣٩

٣- الجوهري: الصحاح، تج: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ج ٣، بيروت، ط ١، ١٩٨٤، ص ٧٦١

٤- سعيد الخوري: أقرب الموارد في فصيح العربية والشوارد، دار المعرفية، بيروت، ج ٣، ط ١، ١٩٧٩، ص ٣٤٢

٥- الطاهر أحمد الزاوي: ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، مطبعة مرسلي الشرعية، بيروت، ج ٢، ط١، ١٩٩٨، ص ٨٤٦

٦- ابن الأثير: المثل السائر، المطبعة البهية، مصر، د ط، د ت، ص ١٤٢

٧- الجاحظ: البيان والتبيين، تج: درويش جودي، المكتبة العصرية، بيروت، ج ١، ط ١، ٢٠٠١، ص ١٠١

٨- القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاهرة، ط ١، ١٩٥١، ص ٢٩

٩- عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة،تج: ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، بيروت، د ط، د ت، ص ٢٩

١٠- المرجع نفسه، ص ن

١١- أبو هلال العسكري: الصناعتين، تج: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٩٨٩، ص ٩٥

١٢- عبد العزيز: علم البيان، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٤، ص ١٢٨

١٣- المرجع السابق: المثل السائر، ص ١٤٢

١٤- القزويني: التلخيص، تج: عبد الرحمان البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، د ط، د ت، ص ٣٠٧

١٥- البحتري: الديوان، دار بيروت، لبنان، ج ٣، د ط، ١٩٨٣، ص ٣٥٦

١٦- محمد سليمان ياقوت: علم الجمال اللغوي، دار المعرفة الجامعية، مصر، د ط، ١٩٩٥، ص ٦١٠

١٧- لبيد بن ربيعة: الديوان، دار صادر، بيروت، د ط، د ت، ص ١٧٦

١٨- المتنبي: الديوان، دار جيل، بيروت، د ط، د ت، ص ٩٢٥

١٩- المرجع السابق: علم البيان، ص ٣٥

٢٠- المرجع نفسه، ص ن

٢١- محمود سيد شيخون: الاستعارة نشأتها وتطورها وأثرها في الأساليب البلاغية، مطبعة الكليات الأزهرية ط ٢، د ت، ص ٩٣

٢٢- مصطفى صادق الرفاعي: إعجاز القرآن في البلاغة العربية، دار الفكر العربي، القاهرة، د ط، ١٩٩٥، ص ٩٢

٢٣- المرجع السابق: الاستعارة نشأتها وتطورها وأثرها في الأساليب البلاغية، ص ٩٤

٢٤- يحي العلوي: الطراز، دار الفكر العربي، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٠، ص ٢١٧

٢٥- البخاري: الصحيح، دار الأندلس، بيروت، ج ٢، د ط، د ت، ص ٢٢٧

٢٦- ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، دار الجيل، لبنان، ج ٢، د ط، د ت، ص ٣٢١

٢٧- المرجع نفسه، ص ٣٢٤

٢٨- الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، تج: حسين العرب، دار الفكر العربي، بيروت، د ط، ١٩٩٤، ص ٢٥١

٢٩- الشريف الرضي: تلخيص البيان في معجزات القرآن، دار مكتبة الحياة، بيروت، د ط، ١٩٨٧، ص ص ٨٥-٨٦

٣٠- المرجع نفسه، ص ٨٦

٣١- المرجع نفسه، ص ٨٧

٣٢- المرجع نفسه، ص ن

٣٣- المرجع السابق: روح المعاني، ص ١٨١

٣٤- المرجع السابق: تلخيص البيان، ص ص ٩١-٩٢

٣٥- المرجع نفسه، ص ٩٤